

بيرم التونسي والوحدات الاشتراكية

بقلم رها والنقاش

وتجاهل ما فيها من عيوب وأخطاء وأمراض ، بل كان على العكس يجمع في قلبه بين الحب لهذه البيئة الشعبية والارتباط بها من جانب والرفض لكل مظاهر التخلف فيها من جانب آخر ، ولذلك جاء شعره تصويرا نقديا عنيفا لكل الامراض الاجتماعية التي تعوق الطبقات الشعبية عن التطور والتي تفكك بهذه الطبقات وتفقد القدرة على معالجة مشاكل حياتها . فهو في فصائده المختلفة يتحدث عن الدجالين الذين يتسترون بالدين ويستغلون البسطاء من أبناء الشعب ، وهو يتحدث عن الامهات وسوء رعايتهن للاطفال ، ويتحدث عن انتشار الخمر والقمار في بعض البيئات الشعبية ، ويتحدث عن الطلاق وتعدد الأزواج . ويمكن لاي باحث أن يقوم بدراسة اجتماعية دقيقة لكل الامراض المنتشرة بين الطبقات الشعبية من خلال اشعار بيرم التونسي ، فقد كان هذا الشاعر الفنان شديد الحساسية لهذه الامراض ، شديد الوعي بها ، وكان غاضبا على هذه الامراض غضب الحب العاشق لشعبه ... حيث يريد لهذا الشعب أن يتطور ويرتقي ويقف على قدميه ليرى الدنيا ويسعد بالحياة ويسهم في بناء الحضارة . وكان بيرم في سخطه على الامراض الاجتماعية في البيئات الشعبية يتمتع بوعي سياسي واضح يكشف امامه عن مصدر هذه الامراض ومنبعها الرئيسي ... يقول بيرم في حديث له عن حياته وفنه :

« كنت مستعدا بالفطرة للتمرد على البيئة القلدة التي اعيش بين ظهرائها ، وارى عيوبها الاجتماعية والامراض النفسية فيها . فاخذت انظم الزجل في بعض الحالات ، وانتقدت بعض الترفات ، وفي نفسي حنق شديد على المجتمع الذي يحيا في جو خائق من الاحتلال الانكليزي . وفي اعماقي ثورة عارمة على الذين يعملون على أن يظل الجهل والفقر سائدين بيئتنا الى ابد الأبدين » .

فهو يدرك بوضوح دور الاحتلال الانكليزي في تأخر الوطن والانسان وهو يدرك ايضا دور العامل الاقتصادي وانعدام المساواة بين الناس في تدمير المجتمع .

على ان تجربة بيرم في اتصاله بالبيئات الشعبية المصرية لم تكن تقتصر فقط على مخالطة البشر والسكنى في الاحياء الشعبية ، بل كانت تمتد الى ابعد من ذلك فقد عمل بيرم في اول حياته بالتجارة في محل كان يملكه والده ، وقد اتاح له هذا العمل اتصالا عميقا بالحياة اليومية للانسان في بيئاتنا الشعبية المختلفة واتاح له دراسة واعية لم يكن بالامكان أن تتوفر له لو كان مجرد متفرج عابر على هذه البيئات الشعبية واذا كانت هذه التجربة قد امدت بيرم بقدر كبير من

« ... تركت محل البقالة الذي كنت أعمل به ، واخذت اجوس خلال الديار ، وانجول في الشوارع . ارى وأتقد . واكتب وأؤلف واحمل في يدي سوطا واضرب به في كل مكان » .

احتفلت مصر في الشهر الماضي بالذكرى العاشرة لبيرم التونسي . والحقيقة أن بيرم يستحق الكثير من العناية والدراسة والاهتمام وخاصة من جانب مؤرخي الحركة الاشتراكية في ميدان الادب والفن . ذلك لان بيرم يعتبر نفسه نموذجا خاصا وفريدا في أدبنا المعاصر من حيث ارتباطه المبكر بالطبقات الشعبية المختلفة وتعبيره الفني الناصح عن هذه الطبقات وعن مشاكلها وهمومها العديدة .

وبيرم التونسي الى جانب انتاجه الغزير الضخم قد توفرت له تجربة انسانية عريضة وان كانت هذه التجربة نفسها قد ملأت حياته بالالم والمرارة والاحساس العميق بالتعاسة الشخصية ، ولكن هذه التجربة في الوقت نفسه قد اشعلت موهبته الفنية الاصيلية ، وحددت له موقفا يعتبر من اصدق المواقف واوضحها في ادبنا المعاصر كله من حيث ارتباطه بالشعب وفضاياه المختلفة . واعتقد أن هذه التجربة العريضة الواسعة لم تتوفر لشاعر أو لاديب عربي آخر من جيل بيرم التونسي . ولم تكن هذه التجربة معتمدة على الحياة التي عاشها بيرم فقط وانما كانت ممتدة ايضا على الظروف الخاصة التي احاطت به وبأسرته .

فما هي ملامح هذه التجربة التي عاشها بيرم ؟ ان اول ما يلفت النظر في هذه التجربة هو الارتباط الوثيق بين بيرم وبين البيئات الشعبية في مصر . فقد ولد وعاش في حي شعبي بالاسكندرية ، ثم عاش في حي شعبي بالقاهرة عندما انتقل اليها وظل مرتبطا بهذا الحي حتى آخر يوم في حياته ، رغم ما حققه في سنواته الأخيرة من نجاح مادي كان كفيلا بان ينتقل به من بيئته الشعبية البسيطة الى بيئة أخرى أكثر رخاء وراحة . ولكن الحقيقة ان بيرم كان مرتبطا ارتباطا نفسيا وانسانيا بالاحياء الشعبية وياهلها ، فتلصق هي البيئة التي يستمد منها صوره وموضوعاته الشعرية ، وهؤلاء هم الناس الذين يزودونه بالشاعر والمواطف المختلفة التي يمتليء بها فنه . ولذلك فلم يكن باستطاعته أن يفصل عن هذه البيئة او عن هؤلاء الناس بعد أن اصبح جزءا منهم واصبغوا جزءا منه .

على ان بيرم التونسي لم يكن ينظر الى البيئة الشعبية التي عاش فيها بالقاهرة او بالاسكندرية نظرة رومانسية مثالية تدفعه الى تمجيدها

وجهها له بيرم التونسي ، وخاصة في مجتمع شرقي محافظ مثل المجتمع الذي ولد فيه فاروق وكتب فيه بيرم قصيدته ... مصر سنة ١٩٢٠ .
اما القصيدة التي كتبها بيرم وأصبحت بين أيدي الجماهير نوعا من المنشور الثوري السري فهي القصيدة التي يقول في مطلعها :

اسمع حكاية وبمنها هاهنا
زهر الملوك في الولد أهو طابا
ما لناش قرون كنا نقول ماما
وناكل البرسيم بالقفة
سلطان بلدنا حرمته جابت
ولد وقال سموه بفاروق
فاروق هارفا بلا نيله
دي مصر مش عايزة وذيلة

وقد عرف السلطان فؤاد بهذه القصيدة ، فقرر القبض على بيرم ونفيه من البلاد « وكان بيرم يسكن اذ ذاك في بنسبون بحارة الطواشي المتفرعة من شارع عبد العزيز خلف محلات عمر أفندي . فدخل عليه البوليس المصري مع مندوب انكليزي وآخر فرنسي واعتقلوه ومضوا به تحت الحراسة في قطار السكة الحديدية الى الاسكندرية . ومنها على باخرة الى وطن أجداده تونس . وكان ذلك في ٢٥ اغسطس سنة ١٩٢٠ »
« فنان الشعب بيرم التونسي - أحمد يوسف أحمد ص ٧٧ » .

وفي تونس قضى بيرم سنتين ، وواصل هناك حياته الشاقة ، ولكنه لم ينس ابدا انه جزء من الحركة الوطنية المصرية ، فعندما تم تعيين فؤاد ملكا على مصر سنة ١٩٢٢ كتب من تونس قصيدته المعروفة بفتح فيها موقف فؤاد غير الوطني وارتباطه الواضح بالاستعمار الانجليزي ، وهي القصيدة التي يقول فيها :

ولا عنمنا بمصر الملوك
جابوك الانكليز يا فؤاد قعدوك
تمثل على العرش دور الملوك
وفين يلقوا مجرم نظيرك ودون
بدلنا ولسه بنبدل نفوس
وقلنا عسى الله يزول الكابوس
ما نابنا الا عرشك يا تيس التيوس
لا مصر استقلت ولا يحزنون

على أن ارتباط بيرم بالحركة الوطنية المصرية لم يتمثل فقط في حملته على أسرة محمد علي ، بل تمثل أيضا في تأييده العميق للشورة الوطنية المصرية سنة ١٩١٩ ، ولا نذكر لنا المصادر المعروفة شيئا واضحا عن اشتراك بيرم في تنظيمات ثورة ١٩١٩ ، ولكن شعره مليء بالتماذج التي تعبّر عن أهداف هذه الشورة تعبيرا عميقا ، واهم هذه الأهداف الدعوة الى التحرير والاستقلال والقضاء على الاحتلال الانكليزي . لقد كان بيرم في هذه الشورة مثله مثل سيد درويش لسانا من السننننا الفنية الالامعة ، يعر عن الجماهير النائرة ، ويصوغ أحلامها وصرخاتها في فنه الاصيل ، فيردد الناس أناشيده ، وينتثرون بها أعظم التاثر .

وهذا نموذج من شعره في ثورة ١٩١٩ ، وهو نموذج يكشف عن وعي بيرم المبكر بالقرى الاقتصادية للاستعمار وهو أمر لم يكن واضحا في ذهن كثيرين من آباء جيله ... يقول بيرم في مطلع قصيدة له عنوانها « ثورة ١٩١٩ » مخاطبا مصر :

مالك شهقت على العالي ياللي مالك زئسد ؟
ما لك يا واقعة طوالي في طريق الهند
ياراضية بالمسيو المالى يلقسرك بالعنسد
والقطن بنضاف عالقلة جوه بيت المال
والفحك يضرب بالقلة يتلصب استقسلال

هذا هو الوجه المعري المحلى لتجربة بيرم التونسي في الفنننن التتمة على الصفحة - ٨١ -

الوعي الاجتماعي السليم . فقد أمدته أيضا بصورة فنية غزيرة مكنته من أن ينسج شعره من نسج شعبي اصيل .

ولنستمع الى بيرم مرة أخرى وهو يحدثنا عن احدى البيئات الشعبية التي عرفها في بداية حياته بالاسكندرية حيث يقول :

« كان حي رأس التين المجاور للأنفوشي صورة طبق الاصل مسن عشى الترجمان القاهرية . الرجال يرقصون القردة . والنساء تسمى في الأذفة بمعيز ترعى القمامة ، والأطفال يجمعون السبارس . كانت أكثر مبانينهم مؤلفة من عشى الصفيح ، الرقعة بالخيش والابراش ، يعلوها الدجاج والمعيز ، وكان قسم كبير من هذه العشى يمتد في شارع رأس التين الموصل الى السراي يتفرج عليه السفراء والقناصل في كل تشريفة . وأسوأ ما كان يعرف عن أهل رأس التين هو الشجار الذي يقع بين نساءهم ، بتعابير يهتر لها عرش الرحمن ، وبالفاظ ترقص عليها الشياطين ... »

هذا الارتباط الاصيل بالبيئة الشعبية في مصر نجد انه انعكس في شعر بيرم في موقفين هامين . الموقف الاول هو ما أشرنا اليه من اهتمام بيرم بتسجيل الامراض الاجتماعية المختلفة والاعتراض عليها . امسا الموقف الثاني فهو الارتباط بالحركة الوطنية المصرية في جميع مراحلها المختلفة خلال هذا القرن .

ولناخذ نموذجا للنقد الاجتماعي في شعر بيرم يتمثل في قصيدته عن ضريح السيدة زينب ونقده العنيف للدجالين والمحتالين ... يقول بيرم :

وفي المقام الكريم محتال ومحتاله
ما الزائرين يلعبوا نسوان ورجاله
تعرفهم المسلمين فيكي يا بغاله
ويدور عليهم نقيب يبحث عن الحلوان
وكل يوم تنتشل كام محفظة فلاح
وكل يوم تفنم الشباحه والشباح
واحدة الحلق من ودانها باللطافة راح
والثانية ضاع من سكات من صدرها الكردان
والنصابين واللصوص . قاعدن بشكل مريب
في القبة « ليلنا نهارا » واسمعهم محاسب
مترصدين بالقالب فسد كل فريب
والعرب تحفر الوف من كافة البلسدان

هذه النغمة النقدية الواعية الصريحة تملأ اشعار بيرم حول الامراض المنتشرة في بيئاتنا الشعبية المختلفة ... وهو نقد يدل على وعي اجتماعي وسياسي كبير في موقف هذا الشاعر الاصيل ... وعي يجعل منه شاعرا ثوريا لا مجرد شاعر يصور الحياة ويقف من أحداثها على الهامش .
والموقف الثاني الذي خرج به بيرم التونسي من ارتباطه بالبيئة الشعبية هو انتماؤه الكامل للحركة الوطنية المصرية في شتى مراحلها . ففي الوقت الذي كان فيه الشعور الوطني معاديا لأسرة محمد علي ، كان بيرم التونسي لا يكف عن مهاجمة هذه الأسرة وكشف أخطائها وارتباطاتها بالاستعمار الانكليزي ، وقد وصل اصطدام بيرم التونسي بأسرة محمد علي ممثلة في شخص الملك فؤاد الى أعنف الحدود ، وقصة هذا الاصطدام بين الشاعر وبين القصر الملكي هي قصة فريدة في تاريخنا الادبي المعاصر ، وهي تكشف عن عمق الارتباط بين بيرم وبين القضية الوطنية في مصر ، وتبدأ القصة بزجل كتبه بيرم بفتح فيه العلاقة بين الملك فؤاد وزوجته ، حيث أشيع أن العلاقة بين الملك والزوجة بدأت قبل الزواج الرسمي بل أشيع أن الزواج نفسه كان سترا لفضيحة هذه العلاقة ، حيث أن الابن الاول لفؤاد وهو فاروق قد ولد بعد الزواج بحوالي سبعة شهور . ولم تكن قصة العلاقة بين فؤاد ونازلي هي المقصودة في حد ذاتها من وراء هجوم بيرم التونسي على فؤاد ، بل كان المقصود هو التشهير بهذا السلطان الذي أصبح ملكا فيما بعد ، والهجوم عليه ، ومحاربهته ، ولم يكن هناك تهمة تحط من قدر هذا السلطان ، مثل التهمة الفاضحة التي

بيرم التونسي والوجدان الاشتراكي

تابع المنشور على الصفحة ٩

والحياة ، وهو وجه شعبي ، مرتبط بالحياة اليومية للجماهير المصرية ، وهو وجه متمرد ثائر ساخط على ماتانيه هذه الجماهير من تخلف وتأخر ، وهو من ناحية أخرى وجه وطني صلب يعارض الاحتلال والاسرة المملوكة ويؤيد الحركة الوطنية ويرتبط بها أوثق الارتباط ويعرض في سبيل ذلك للنفي والتشريد .

على أن الجانب الثاني من جوانب تجربة بيرم التونسي يعتبر من أخطر جوانب هذه التجربة وأعمقها ، ويعتبر أيضا من أخطر الجوانب في التجارب التي عاشها الأديب العربي في القرن العشرين .

لقد تعرض بيرم للنفي على يد الملك وسلطات الاحتلال ، وكان منفاه الأول في تونس سنة ١٩٢٠ حيث استطاع أن يعود من هذا المنفى هاربا إلى مصر بعد سنتين ، ولكنه تعرض للنفي مرة أخرى إلى فرنسا سنة ١٩٢٥ وبقي هناك حتى سنة ١٩٢٢ .

وكانت هذه السنوات في غاية الأهمية والعمق من حيث تأثيرها على بيرم ووعيه الاجتماعي وموقفه من الحياة .

لقد اختلط في مصر بالبيئات الشعبية المختلفة ، ولكنه في فرنسا اختلط اختلاطا واسعا بالبيئات الصناعية والعمالية ، في مدينة ليون الصناعية المعروفة ، وفي ميناء مرسيليا ، ثم في باريس نفسها . بل لقد أصبح بيرم نفسه عاملا يدويا ، وواحدا من آلاف العمال الذين يعانون الالم والشقاء في ظل الحركة الصناعية الرأسمالية النشيطة في فرنسا .

وهذه نماذج من الأعمال التي مارسها بيرم في فرنسا :

عتال في مصنع للخمور « يدحرج البراميل او يحمّل مجموعة القنينات الثقيلة » .

« شيال » في ميناء مرسيليا .

عامل في مصنع للإنتاج الكيميائي .

وأخيرا في باريس أصبح واحدا من آلاف العمال العرب الذين يقومون بإصعب الأعمال واشقائها في فرنسا ، وكان هناك جماعات كبيرة من العمال الجزائريين والتونسيين والمراكشيين يقومون في فرنسا بهذه الأعمال العنيفة الشاقة .

هذه التجربة الفريدة في حياة بيرم التونسي ، بل في حياة أدبنا العربي المعاصر كله ، انضجت وعي بيرم بالظلم الاجتماعي ، وأطلعته من خلال الممارسة الحية على معنى الشقاء الاقتصادي الذي تعانیه الطبقة العمالية في العالم كله ، ومن هنا أصبح مفهومها لديه - في ذلك الوقت المبكر - أن الاستعمار لم يكن استعمار شعوب لشعوب أخرى ، بقدر ما هو استغلال لطبقات مسيطرة على طبقات أخرى في الغرب والشرق على السواء ، فالعمال الأشقياء في ليون ومرسيليا وباريس هم ضحايا نفس العدو الذي يمتص دماء المصريين والجزائريين والتونسيين وغيرهم من أبناء الطبقات الشعبية في المستعمرات .

ولم أعرف في أدبنا العربي المعاصر كله تجربة مثل تجربة بيرم التونسي في الارتباط بالطبقة العاملة في أوروبا ارتباطا مباشرا عميقا يكشف أمام الانسان أبعاد الظلم الاجتماعي العالمي بوضوح وعمق .

ومن هنا كان وعي بيرم بقضية العمال وعيا صادقا أصيلا ، ذلك لأنه لم يقرأ هذه القضية في كتب ، ولم يتعلمها في مدرسة او في تنظيم سياسي ، ولم يسمع بها من أشخاص آخرين ، بل عاش هذه القضية بنفسه واكوى بنيران العمل اليديوي الشاق لخدمة أصحاب المصالح الكبرى من المستعمرين الغربيين ، وامتزج بالطبقة العاملة الأوروبية في أيام تعاستها وشقائها في اوائل هذا القرن ، وامتزج بالطبقة العاملة العربية التي تعمل في فرنسا وكانت أشقى وأتسح حلا من زميلتها الطبقة العاملة الأوروبية ... ومن هنا ففتمنا نقول ان بيرم التونسي كان أدبيا اشتراكيا ... يشر بالعدالة الاجتماعية وبالمساواة الاقتصادية وبحقوق

الطبقة العاملة في مصر وفي العالم كله ... عندما نقول ذلك فنحن نستند إلى واقع حقيقي عايشه هذا الفنان الكبير ، ونستند إلى قصائده العظيمة في الدعوة إلى حقوق الطبقة العاملة . انه عندما يكتب عن العمال فهو في الواقع يكتب عن نفسه وعن تجربته مع الأيدي الحسنه من عمال العالم .

ولعل قصيدته المشهورة عن « العامل » والتي كتبها بعد عودته من منفاه سنة ١٩٢٨ تكشف عن هذا الوعي العميق بقضية الطبقة العاملة وعن الانفعال الصادق بهذه القضية ، ولا شك أن هذه القصيدة كانت وسنظل نموذجا فنيا رائعا للأدب الاشتراكي الذي يعبر في فن جيسل رابع عن وعي اجتماعي صحيح وصادق .

وليأذن لي القراء في أن أنقل هنا نص هذه القصيدة المعروفة المنشورة ليمتها وأهميتها وجمالها الفني النادر .

يقول بيرم فيما يشبه تشيدا ثوريا للطبقة العاملة في مرحلة فاسية من مراحل كفاحها في المجتمع المصري القديم :

ليه بيتي خربان ونا نجار دواليبكم
ليه فرشي عريان ونا منجد مراتبكم
ليه امشي حفيان ونا منيت مراكيبكم
هيه كده قسمتي
الله يحاسبكم

ساكنين علالي العنّب وأنا اللي بائيهما
فارشين مفارش قصب ناسج حواشيهما
قائنين سوافي ذهب ونا اللي ادور فيها
يارب ما هشي حسد
لكن بعاتبكم

من الصباح للمسا والمطرقة فيسدي
صابر على دي الاسى حتى نهار عيسدي
ابن السبيل انكسى وأسحب هسرا بيدي

تتعروا من مشيتي
وأخجل أخاطبكم

ليه تهدمونسي وأنا اللي عزكم بانسي
أنا اللي فوق جسمكم قطنسي وكنسانسي
عيلتي في يوم دفني ما لقيتش الكفانسي
حتى الاسية وأنا
رابع وفايتكم

هذه هي القصيدة الرائعة التي يكشف فيها بيرم بعمق وأصالة عن مأساة الطبقة العاملة في مصر ... في مجتمعنا القديم قبل الثورة ، وقد يلاحظ البعض أن ما في القصيدة من حزن وأسى إنما يتنافى مع الثورة المطلوبة في شاعر متمرد غاضب ، ولكن بيرم هنا فنان يعبر عن احساسه الوجداني ووعيه الانساني ، وليس خطيبا سياسيا او مفكرا نظريا ، او واحدا من منظمي الحركة النقابية او ما إلى ذلك . ان بيرم هنا يؤدي رسالته كفنان قادر على التعبير والتأثير من خلال احساسه بمأساة العامل المصري ، ومن خلال احساسه بالفارق العنيف بين دور العامل في بنسائه المجتمع ومكانته المتخلفة في هذا المجتمع .

وموقف بيرم من الفلاحين لا يقل في أصله ونضجه عن موقفه من الطبقة العاملة ، فهناك صلة قوية ومحنة مشتركة بين العمال والفلاحين في مجتمع مصر الخاضعة للاحتلال وسيطرة الانقطاع والرأسمالية ، ولذلك كانت قصيدة بيرم عن « الفلاح » في نفس المستوى العميق الاصيل لقصيدته عن العامل ... نفس المستوى من الفن والتعبير الساحر الجميل ، ونفس المستوى من الفهم والوعي الاجتماعي ، مما يجعل من بيرم واحدا من اكبر واصدق الدعاة إلى الاشتراكية والعارفين بها والمؤمنين برسالتها الانسانية .

يقول بيرم في هذه القصيدة الرائعة ، وهي الاخرى قصيدة معروفة ومشهورة :

((القصة العربية الحديثه))

عدد ممتاز من ((الآداب))

تعتزم « الآداب » اصدار عدد ممتاز في اوائل العام القادم ١٩٧٣ يضم أحدث نماذج القصة العربية المعاصرة من إنتاج القصاصين في مختلف أقطار الوطن العربي .
بالمجلة ندعو كتاب القصة العربية القصيرة الى الاسهام في تحرير هذا العدد الممتاز .

الاوله آه ... والثانية آه ... والثالثة آه

الاوله . عيروني ان انا فلاح

والثانية . ازرع ، وأقلع ، للي نام وارتاح .

والثالثة . آه اللي اجه شط مني وراح

الاوله . عيروني ، ان انا فلاح ، بديفة

والثانية . ازرع ، وأقلع ، للي نام وارتاح ، في ذهبية

والثالثة . آه اللي اجه شط مني وراح ، في صبحية

الاوله . عيروني ، ان انا فلاح ، بديفة ، وهيشي حاف

والثانية . ازرع وأقلع ، للي نام وارتاح ، في ذهبية بميت مقداف

والثالثة . آه اللي اجه شط مني وراح في صبحية ماقالي هواف

الاوله . مش بايدي . دا قضا محتوم

والثانية . ومسير ناس تفرق وناس حاتوم

والثالثة . ميت هم يرحل . الف هم يدوم

الاوله آه ..

والثانية آه

والثالثة آه

نفس الاسى والحزن الذي نجده في قصيدته عن العاصم ...
ونفس الاحساس العميق بالتناقض بين وضع الفلاح الذي يصنع الثروة والحياة ووضع العاطلين الذي ياكلون اناج الغير ويستمتعون به دون عمل أو اناج ... ولكننا في هذه القصيدة نجد هذا التنبؤ الشعري بمصير الطبقات الاستغلالية حين يقول لنا بيرم :

((ومسيرها ناس تفرق وناس حاتوم)) .

على أن الجانب العالمي في تجربة بيرم والذي اتيح له من خلال حياته بين افراد الطبقة العاملة في فرنسا .. هذا الجانب العالمي ليس هو الجانب الاخير في تجربة بيرم ، فهناك جانب آخر على قدر مسن الخطورة والاهمية ، وهو لا يقل عن الجانب المحلي الذي اكتسبه من حياته في البيئات الشعبية المصرية وارتباطه بالحركة الوطنية في مصر ، ولا يقل عن الجانب العالمي الذي اكتسبه في منفاه .

هذا الجانب الجديد هو الجانب العربي من تجربة بيرم . فقد ولد بيرم التونسي سنة ١٨٩٢ من اصل تونسي ، حيث كان جده لابييه مهاجرا الى الاسكندرية من تونس ، اما ابوه ((محمد مصطفى بيرم)) فقد ولد بالاسكندرية ، وعاش بها طيلة حياته ، وهذا الاصل التونسي ترك أثره الواضح في تفكير بيرم وفي فنه ، فقد كان في انتاجه الفني ومواقفه السياسية يعنى على الدوام انه شاعر عربي ، ليس سجيناً ابداً في حدود اقليمية ضيقة فهو يكتب دائما من خلال احساسه العميق بكل هموم العرب والامم في اي بلد من البلدان ، ولقد كان هذا الاحساس العميق عند بيرم بانتماه الى العرب في مصر وفي غيرها احساسا طبيعيا ، حتى قبل ظهور الدعوة الى الوحدة العربية كحركة من حركات التحرر الوطني العالمي ، واذا كان الاصل العائلي قد ساهم في خلق هذا الانتماه العربي عند بيرم ، فقد تأكد هذا الانتماه من خلال

تجربته في منفاه بفرنسا حيث اختلط بعمال الجزائر وتونس والمغرب كما أنه قضى بعض سنوات منفاه في تونس ، وسوريا ولبنان ، وعاش في هذه البلاد فترة مكنته من الاحساس بوحدة المنصور العربي من خلال الكفاح ضد الاستعمار والاستغلال . واخيرا فان الانتماه العربي عند بيرم قد تأكد من خلال اهتمامه الواسع بالثقافة العربية القديمة ، والتي كانت رافدا هاما من روافد ثقافته رغم انه فنان شعبي يكتب شعره بالعامية المصرية ، وهو يتحدثنا عن هذا المصدر العربي من مصادر ثقافته فيقول :

((.. حفظت القرآن ودرست ستة كتب مشهورة في تجويده وتلاوته بعزاه عن اثنابته عن ائمة الشرع والدين ، ثم استوعبت دراسة الادب العربي من امهات مصادر وشربه من اصفى منابعه ، ودرست البلاغة وعلوم اللغة وفهمها واحطت بشواردها واوابدها احاطة السوار بالمصم))

هذا المنبع الثقافي العربي الذي اهتم به بيرم به اشد الاهتمام ساعده ولا شك على تعميق تجربته ، وتعميق انتماه العربي ، واحساسه بوحدة الحركة الوطنية العربية ، وحركة الطبقات الشعبية في الوطن العربي كله نحو تحرير نفسها من القيود والغلال .

وفي ديوان بيرم نجد نماذج عديدة رائعة تصور انفعاله بالنضال العربي وتجاوبه العميق مع هذا النضال ، فهو يقول عن سوريا بعد أن احتلها الفرنسيون ((ديوان بيرم الجزء الثاني ص ٢٥)) :

يا ام الضفاير يا شاميه

يا جانظي خالصي يا طريه

خوخك بكام ردي عليه

وكلميني عن الرمان

وهي قصيدة جميلة تصور سوريا في صوة عاطفية صادقة تدل على مدى انفعال بيرم بكل ما يقع في الارض العربية ومدى احساسه بوحدة المنصور بين مصر وبقية العرب . وفي قصيدة أخرى عن عبيد الكريم الخطابي بطل الريف المغربي في نضاله ضد الاستعمار ... يقول بيرم :

داخل علينا ضيف

صاحب مقام عالي

اعظم رجال السيف

في عصرنا العالي

عارفينه يبقى مين

يا ناسي يا ناسيين

قولوا صلاح الدين

واحد ودا الثاني

ملك جبال الريف

م السفح للقمه

من غير نصير وحليف

يضرب دول عظمي

فرنسا والاسبان

بعده الميدان

وهو بالايمان

واحفل بايماني

هذا هو بيرم التونسي الفنان الاشتراكي الذي عاش ومهنته هي العمل البيوي خلال فترة طويلة من حياته عانى فيها شقاء الطبقة العاملة في مصر وفرنسا ، وعبر أعظم التعبير عن ثورة الانسان في بلادنا من اجل العدل والحرية ، وكانت دعوته الاشتراكية الصادقة تظهر دائما في اطار من الوعي باهداف الحركة الوطنية المصرية والوعي بانتماه العميق للامة العربية وكفاحها من اجل الحرية والوحدة .

رجاء النقاش

القاهرة